- ١١ -

غزوة خيبر

كان يهود خيبر الذين يسكنون فى الشمال قوة.. فهم يملكون المال ويملكون العتاد.. وحصونهم منيعة فوق قمم الجبال..ولهم مزارع وحدائق تدر عليهم الكثير ..وكانوا يكنون للنبى عداوة شديدة ..وكانوا ينتهزون الفرص للقضاء عليه.. ولم ينسوا ما فعله النبى فى يهود المدينة لخيانتهم العهود والمواثيق..وكراهيتهم للرسالة والرسول..

وكان لابد أن يأمن المسلمون أنفسهم من غدر يهود خيبر فى الشمال .. كما آمنوا مكة فى الجنوب.. حتى يتمكن النبى ﷺ من نشر الدعوة. وبث ما فيها من مبادئ وقيم فى القلوب.

وهكذا لم يمض سوى خمسة عشر يوما بعد العودة من الحديبية، أو شهر فى أقوال أخرى، حتى قرر النبى أن يهاجم يهود خيبر، حتى لا يسود فى شبه الجزيرة العربية إلا الدين الخاتم.. وحتى يقضى على نفوذ اليهود السياسى.. ويأمن ألا يكون عونا للأعداء عليه.. وخاصة لو جاء هذا العدو من قبل الروم أو الفرس، أو حتى القبائل العربية التى طالما تآمرت معهم اليهود للقضاء على الدعوة الإسلامية !

وقد كان يهود خيبر يحسون بالخطر الإسلامى أشد ما يكون الإحساس وخاصة بعد صلح الحديبية.. التى آمن من خلالها المسلمون من جبهة قريش.. ومن هنا فقد فطن إلى ذلك زعيمهم سلام بن مشكم.. ونادى بأن يتحد كل يهود الشمال.. خيبر وفدك ووادى القرى، وتيماء.. ليكونوا يدا واحدة فى مواجهة النبى ﷺ..

وعلم الرسول بمؤامرة أخرى يحيكها اليهود وهو اتفاقهم مع (غطفان) على أن يعطوها بعض الثمار، وتقوم هى كخط دفاع عنهم.. فإذا هاجم المسلمون خيبر.. وقع المسلمون فى مصيدة بين قوات غطفان من الخلف وقوات اليهود من الأمام..

وقرر النبى ﷺ مفاجأتهم فى عقر دارهم.. فجهز جيشه من الذين كانوا معه فى صلح الحديبية.. هؤلاء الذين بايعوه بيعه الرضوان، وقرروا الاستشهاد فى سبيل الله.. ووضعوا يدهم فى يد الرسول يبايعونه على الموت.. هؤلاء أقدر الناس على تحمل المسئولية فى هذه المعركة الفاصلة فى تاريخ الإسلام.. وهم أحق الناس بالغنائم.. وفيهم نزل قوله تعالى:

﴿ قَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [الفتح: ١٨، ١٩].

وخرج النبى بهذا الجيش الذى كان تعداده ألفا وستمائة ومعهم مائة فارس فى قول، وفى قول آخر ألف وأربعمائة رجل منهم مائتا فارس فى قول آخر لمهاجمة يهود خيبر الذين يربو عدد جنودهم على عشرة آلاف مقاتل..

وقد حاول بعض الأعراب الذين دعاهم النبى إلى الحج معه يوم اتجه صوب الحديبية أن يذهبوا مع النبى لقتال اليهود طمعا فى الغنائم، فرفض النبى دعوتهم.. لأنهم تخاذلوا وتحججوا بأوهى المعاذير حتى لا يخرجوا مع النبى لأنهم كانوا يظنون أن المسلمين سوف تهزمهم مكة هزيمة منكرة لأنهم لا يملكون معهم إلا السيوف.. وأن قريشا سوف تنتهز هذه الفرصة للانتقام.. ومن هنا فقد هربوا من مواجهة الموقف.. وأنزل الله فيهم:

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴾ [الفتح: ١١ - ١٣].

خرج النبى بجيشه الذى يضم المؤمنين الصامدين، الذين ملأ الإيمان قلوبهم صوب خيبر التى تبعد قرابة مائة ميل عن المدينة.. قطع هذه المسافة فى ثلاث ليال.. وكانت معه فى هذه الغزوة أم المؤمنين (أم سلمة) التى كانت معه فى الحديبية..

وكان المسلمون يريدون أن يفاجئوا العدو قبل أن يعرف بهجومهم فيستعدوا له.. فكانوا يسرعون الخطى.. وكان صوت (عامر بن الأكوع) يحثهم على الجهاد وكان يغنى شعر ابن رواحة:

والله لولا الله ما اهتدينا

ولا تصدقنـا ولا صلينا

فأنـزلـن سكينـة علينـا

وثبت الأقـدام إذ لاقينـا

وفاجأ النبى يهود خيبر.. فقد كان بعضهم قد خرج فى صباح هذا اليوم لرعاية حدائقهم وزرعهم.. وفوجئوا بجيش المسلمين، فرجعوا بسرعة إلى حصونهم.. وكانت حصون اليهود عددها ثمانية..

وبدأ المسلمون هجومهم على حصن يسمى حصن الناعم.. فحاصروه سبعة أيام دون جدوى.. وكان لابد من مهاجمة الحصن، وأمر النبى أبا بكر الصديق أن يتوجه إلى مهاجمة الحصن ولكن لم يتم الفتح المشهود، فأمر النبى عمر بن الخطاب أن يقود المعركة.. ولكنه عاد ولم يتحقق النصر، فقال النبى ﷺ:

- «لأعطين الراية غدا رجلا يحبه الله ورسوله. ويحبانه، ويفتح على يديه وليس بالفرار»..

وأشرأبت النفوس إلى من سيخطى بهذا الشرف.. وأصبح كل صحابى يتمنى أن يكون هذا الرجل الذى سيكون على يديه فتح هذا الحصن، ويكون حبيبا لله ورسوله..

وفى صبيحة اليوم التالى كان يحمل الراية على بن أبى طالب، وأسرع نحو الحصن يقود جيش المسلمين بشجاعته المعهودة، وخرج إليه فارس يهودى يدعى (مرحب) كان فارسا صعب المراس، مدججا بالسلاح.. متدرعا بدروعه.. وضرب عليا ضربة شديدة اسقطت الترس من يده، فما كان من على إلا أن التفت بسرعة حوله، فوجد باباً ضخما كان بجوار الحصن، فأخذه، وقاتل به، وضرب (مرحب) ضربة قوية أسلمته للموت.!

وشاهد اليهود هذا المنظر فحاولوا الفرار، ولكن المسلمين أسرعوا خلفهم واستولوا على الحصن المنيع!

ويقول الرواة أن (الباب) الذى كان يقاتل به على بن أبى طالب كان من الضخامة والثقل بمكان لدرجة أن سبعة من الصحابة لم يستطيعوا حمله!!

وبدأ الزحف الإسلامى نحو مختلف الحصون اليهودية، وقاتلوا اليهود قتالاً عنيفاً ضارياً.. وتساقطت الحصون الواحد تلو الآخر.. وفى حصن (القموص) وجد المسلمون فيه بعد سقوطه نساء زعماء اليهود.. وكان من بينهن صفية بنت حيى بن أخطب التى تزوجها الرسول وأصبحت أماً من أمهات المسلمين..

ووجد اليهود أن الهزيمة واقعة لا محالة، فقرر زعيمهم كنانة بن الربيع أن تحقن الدماء، وأن يجلو اليهود تاركين أموالهم وأرضهم وسلاحهم.. ورضى الرسول بهذه الشروط وقال لكنانة:

- «وبرئت ذمة الله وذمة رسوله أن كتمتمونى شيئا من أموالكم»..

وعلم النبى من أحد أسرى اليهود بأن كنانة قد أخفى أموال (حيى بن أخطب).. وبحث النبى عن هذه الأموال ووجدها، فأمر بقتل (كنانة) لخيانته.. وكنانة كان زوجا (لصفية بنت حيى)..

وقد عرض اليهود بعد الهزيمة أن يزرعوا أرض خيبر، ويظلوا بها، وهم أهل خبرة بزراعة هذه الأرض، على أن يكون نصف ريعها للمسلمين،

ونصفها الآخر لهم.. ووافق الرسول على ذلك واشترط أن من حقه طردهم من خيبر متى شاء..

وغنم المسلمون غنائم هائلة.. وفى نفس الوقت ارتفعت روح المسلمين المعنوية، لتحقيق هذه الانتصارات الهائلة على اليهود، وبالتالى فقد أصبح المسلمون فى أمان من اليهود ومن مشركى مكة..

وكلف النبى (ابن رواحة) أن يكون هو الحكم بين المسلمين وبين اليهود فى تقدير نصف المحصولات كما نص الاتفاق بين النبى وبين اليهود، وكان الرجل عادلا لا يرعى إلا الحق.. والعجيب أن اليهود حاولوا رشوته حتى يكون نصيب المسلمين أقل من النصف، ولكن الرجل اليقظ الضمير أبى ذلك، وقال لهم:

- «يا أعداء الله تعطوننى السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلىّ، ولأنتم أبغض إلىّ من القردة والخنازير.. ولا يحملنى بغضى إياكم أو حبى إياه على ألا أعدل بينكما»..

وواضح أن الغدر من طبيعة اليهود.. فقد حدث أن جاءت زينب بنت الحارث وهى يهودية وقدمت طعاما للنبى ﷺ، وقد زعمت أن هذا الطعام هدية للرسول الكريم الذى أبقى قومها فى ديارهم، وعاملهم معاملة كريمة.. وكانت هذه المرأة قد وضعت السم فى لحم الشاة.. وأخذ النبى قطعة من اللحم فلاكها فى فمه، ثم قذفها وهو يقول:

- «ان هذا العظم ليخبرنى بأنه مسموم»..

وقد كان (بشر بن البراء بن معرور).. يأكل مع النبى فابتلع اللحم.. ولم يلبث أن شعر بأعراض السم، ولفظ أنفاسه الأخيرة..

وأحضروا المرأة وسألوها لماذا فعلت هذه الفعلة القبيحة.. وكان ردها إنها أرادت أن تنتقم لقومها، وأن محمدا لو كان نبيا فسوف يخبره الله بأن الطعام مسموم!

وقد قتلت هذه المرأة لأنها كانت السبب فى موت بشر..

وبعد سقوط حصون خيبر، تهاوت قبائل اليهود الأخرى فقد أيقنوا استحالة الانتصار على المسلمين، فاستسلمت (فدك) للنبى بشروط خيبر.. وكانت أرض فدك للنبى ﷺ، لأن أحدا من المسلمين لم يقاتل فيها..

أما (وادى القرى) فقد استسلموا بعد حصار بسيط، واستسلمت (تيماء) على أساس دفع الجزية.. وهكذا زالت سطوة اليهود من الشمال، وغنم المسلمون غنائم رفعت مستوى حياتهم المعيشية ارتفاعا كبيرا..

وعاد النبى بعد هذه المعارك التى استمرت قرابة الشهرين ليواصل جهاده العظيم..

وكم كانت فرحة المسلمين غامرة، عندما عادوا إلى المدينة فوجدوا المسلمين المهاجرين إلى الحبشة، وقد رجعوا إلى مدينة رسول الله بعد تلك الغربة التى امتدت قرابة العشر سنوات.. وكان من هؤلاء الذين عادوا أم حبيبة التى تزوجها النبى.. بعد أن علم أن زوجها (عبيد الله) قد ارتد عن الإسلام، وأنها أنكرت عليه ذلك فبعث النبى إلى نجاشى الحبشة أن يزوجها له، وقد حقق النجاشى رغبة رسول الله.. وكان وكيلها خالد بن سعيد ابن العاص، وعقد الزواج جعفر بن أبى طالب بن عم النبى عليه الصلاة والسلام.. أما الصداق فكان هدية من النجاشى لنبى الإسلام وكان أربعمائة دينار..

وقد فرح النبى بعودة ابن عمه جعفر من رحلة الغربة الطويلة وقال:

- «ما أدرى بأيهم أنا أسر، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر»..

* * *